الماضية يقال لهم المديانيون والعماليق فحاربهم وغلبهم وأمر بقتلهم جميعاً وغضب على قواده لعدم قتلهم الاطفال والنساء». وبعد وفاة موسى، انتشر بنو اسرائيل في نواحي يثرب كلها إلى العالية، وهي جبال محيطة بيثرب، «فكان ذلك أول سكنى اليهود المدينة».

وبعد خراب البيت الثاني وتشتت اليهود، خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين من الرومانيين إلى من في الحجاز من بني اسرائيل فنزلوا العالية. وكان يسكن حول يثرب من قبائل بني اسرائيل: «بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو ماسلة وبنو زيد وبنو عوف وبنو الفصيص». فجميع هذه القبائل «من اليهود والمتهودين استعربوا وصار لا فرق بينهم وبين العرب ونظموا الشعر العربي»، مثل أوس بن دنى اليهودي، وكعب بن سعد القرظي، والسموأل بن عاديا، وسارة القريظية وغيرهم. «واستولى اليهود على تجارة جميع المدن... وجمعوا أموالها بأيديهم وحصروا مرابحها لأنفسهم وذويهم وبنوا لهم حصوناً يجتمعون بها اذا خافوا ويخبئون فيها أموالهم عند حدوث الغارات».

ولما حدث «السيل المعروف بالسيل العرم وطغت المياه على أهل مأرب... هاجروا من اليمن إلى الحجاز والشام»، ونزلت الاوس والخزرج بيثرب بين قبائل اليهود «المستولين على خير البقاع... وأقاموا في جهد وضيق في المعاش... والاموال والغلبة والحكم لليهود». وجار امراء اليهود وظلموا، وخصوصاً منهم ملك يقال له الفيطون، فثار عليه مالك بن عجلان سيد الخزرج وقتله.

وأصبحت الاوس والخزرج، بعد هذه الواقعة، «أعز أهل المدينة وشاركوا اليهود في النخل والدور وابتنوا المساكن والحصون وذل اليهود... وخافوا خوفاً شديداً فجعلوا كلما هاجمهم أحد... بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهود إلى جيرانه فيقولون انما نحن جيرانكم ومواليكم».

ولما قامت الحروب بين الاوس والخزرج كانت اليهود «تلتزم جانب القوي وتنصره». ويروي المؤلف، في هذا الصدد، ثلاثة أحداث هي: «حرب يوم الفجار الثاني، وواقعة «يوم بعاث»، وواقعة السموأل مع المنذر بن ماء السماء بشأن دروع امرىء القيس.

ذلك بأن اليهود في حرب يوم الفجار الثاني أعطوا الخزرج أربعين غلاماً منهم رهناً على ان لا يحالفوا الأوس. ثم حالفوا الأوس، فخيّرتهم الخزرج بين الجلاء عن ديارهم وبين قتل الرهائن، فاختاروا قتل الرهائن. أما في يوم بعاث، فقد التقى الأوس وحلفاؤهم اليهود الخزرج، وانتصر الأوس، فناشدت الخزرج الأوس الا يسلبوها فلم يسلبوها، الا اليهود فقد فعلوا «لشدة حرصهم وطمعهم».

ويروي المؤلف عن حادثة السموأل انه ورث عن جده بتيماء الحصن المعروف بحصن الابلق الفرد الذي يقول فيه:

فالأبلق الفرد بيتي به وبيت النضير سوى الأبلق

وكانت العرب «تقيم هناك سوقاً تجني مرابحها اليهود، وكان السموأل أعظم تجارها»، فلجأ اليه امرؤ القيس بن حجر الكندي «كما يلجأ الامراء المفلسون إلى كبار الصيارفة... وأودعه دروعه الخمسة الموروثة عن أجداده ودروعاً أخرى وسلاحاً ومالاً»، وسأله، في المقابل، ان يساعده في الوصول إلى قيصر في القسطنطينية ليستعين به على منذر بن ماء السماء، فأجابه السموأل إلى طلبه لكونه «خبيراً بما ينتج عن هذه المهمة السياسية وبما يعود عليه وعلى قومه من المرابح التجارية لو